من بلاغة الحديث النبوي في التحذير بـ(إياك)

التحذير في المعاملات

د/نورعويض عبدالرحيم الرفاعى
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدلله الذي خلق الإنسان، علمه البيان، وأرسل رسوله صلى الله عليه وسلم بالنور والهداية، وحدد له معالم رسالته، إذ خاطبه بقوله تعالى:

(يَاأَيُّهَاالنَّبِيُّ إِنَّاأَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا)[1]وبعد:

فإن سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم من أعظم السير وأهمها، لأنها تمثل حياة الحبيب القدوة أصدق تمثيل، كما أنها ترسم النموذج الأمثل لمن أراد القدوة الحسنة، فقد زوده الله تعالى بما لم يزود به نبياً من قبل، فجعل خلقه القرآن، وأنزله بلسانه، وجعل خطابه الحديث الشريف مبيناً موضحاً لقرآنه، قال تعالى:

(وَأَنزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[2]

والاشتغال في كتاب الله تعالى وفي سيرته صلى الله عليه وسلم من أفضل القربات وأعظم الطاعات ففيها وفي كتابه تعالى العصمة من الوقوع في المحظور، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ،كِتَابُ اللهِ،وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي،فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُأَنَّكَ قَدْبَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ[3]

---

[1]سورة الأحزاب /45 -46

[2]سورة النحل/ 44

[3]رواه الحاكم في مستدركه (171/1)

ومن فضل الله تعالى على عباده أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، يربيهم على الإسلام الذي أراده، وذلك بتعليمهم وإرشادهم بالسنة القولية والفعلية والتقريرية، لما فيه من صَلاح دينهم ودنياهم، فتربيته صلى الله عليه وسلم لم تقتصر على تعليمهم أركان الإيمان والإسلام بل رباهم على مكارم الأخلاق في أنفسهم ومع الآخرين، وهو ما يعرف بـالمعاملات، لأن الدين المعاملة، وقد اتبع في سبيل ذلك أساليب متنوعة وطرائق ناجحة ، فأخذهم بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى ، فقد كان يعد أصحابه (صلى الله عليه وسلم)إعداداً خلقياً وسلوكياً لتحقيق الأمن والطمأنينة لهم ولمجتمعهم.

وقد كان أسلوب التحذير أحد أهم أساليب الترهيب في حديثه صلى الله عليه وسلم إذ ورد التحذير بـ (إياك وفروعه الخاصة بالخطاب) في مواضع عدة ،وقد حاولت هذه الدراسة تلمس ذلك الأسلوب في الحديث الشريف متخذة من وجوده في أحاديث المعاملات نموذجا لبيان ذلك وتأكيده ،وقد انتخبت الدراسة بعض الأحاديثالمتضمنة هذا الأسلوب ؛ لتكون أمثلة ونماذج تحقق الهدف من البحث وتكشف عن الملامح البلاغية والجوانب الأسلوبية لهذا الأسلوب.

دوافع اختيار الموضوع:

1- الرغبة في الاتصال بسنة الرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعايشتها قراءة وفهمًا ودراسة، ولعل هذه الدراسة المتواضعة تفتح مغاليق النَفس لدراسات أوسع وأشمل متصلة بسنة الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام.

2- إن الحديث الشريف هو المصدر الثاني للتشريع وهو نبع البلاغة والفصاحة بعد القرآن الكريم، فأردت التعرف على بعض أسراره في ضوء مادرست في علوم البلاغة الثلاثة.

3- الوقوف على أسلوب التحذير بـ(إياك) في البيان النبوي وبيان ملامح البلاغة فيه بهدف التعليم والتوجيه والإرشاد، خاصة في عصرنا الذي بدأت ملامح الجاهلية الأولى تطل علينا فيه متخذة من دعوى الحضارة والمدنية ستارا تتخفى وراءه ، وهي تحمل في طياتها الدعوة إلى الانحراف والشذوذ ونبذ أخلاقيات الدين خاصة في جانبه الحركي والعملي ممثلا في المعاملات.

أهمية الموضوع:

1- إبراز محاسن السنة المطهرة وبلاغتها في تناول أهم قضايا الحياة، ومنها قضية المعاملات بين الناس.

2- كثرة أحاديث التحذير الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم ومنها التحذير في المعاملات.

3- حاجة الأمة الإسلامية الماسة إلى معرفة توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم في المعاملات في جميع الأزمنة لا سيما عند ظهور التيارات المعاصرة

المنهج المتبع في هذا البحث:

اعتمد البحث المنهج التحليلي وحاولت الاستفادة من معطياته في ضوء فنون البلاغة الثلاثة (المعاني – البيان – البديع) وتطبيق ذلك على أحد أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم المتضمنة أسلوب التحذير بإياك.

خطة البحث:

أ –المقدمة:

وفيها حديث عن دوافع اختيار الموضوع، وأهميته، والمنهج المتبع فيه.

ب – المدخل:

وفيه بيان معنى التحذير، ومعنى المعاملات.

ج – تحليل الحديث.

د – الخاتمة.

هـ –فهرس المصادر والمراجع

مدخل:

معنى التحذير

التحذير لغة:التحذير من حذر: والحذر مصدر قولك: "حذرتُ أحذرُ حذراً، فأنا حاذر وحذر وتقرأ الآية :"وإنا لَجَمِيع حَاذِرُون"[4]أي مستعدون، ومن قرأ: حذرون بمعناه: إنا

[4]سورة الشعراء/56

نخاف شرهم، وأنا حذيرك منه أي أحذركه، وحذار يافلان أي: احذر"[5] و(الحذر) التحرز، ورجل (حذر) بكسر الذال وضمها أي متيقظ متحرز.

و(التحذير) التخويف[6]

و(الحذر): بمعنى التخويف، وحاذر: متأهب معد، والإحذار: الإنذار[7]

و(الحذر) بالكسر ويحرك. الاحتراز وحذاري أي متيقظ شديد[8] وفي المفردات الحذر: احتراز من مخيف[9]

والتحذير اصطلاحاً:

" تنبيه المخاطب على أمر يجب الاحتراز منه "[10] وقيل : هو نصب الاسم بفعل محذوف يفيد التنبيه ، ويقدر بما يناسب المقام: كاحذر، وباعد، وتجنب ونحوها.

وفائدة التحذير: تنبيه المخاطب على أمر مكروه ليتجنبه.

فإن كان بـ إياك وأخواته – وهو إياكِ وإياكما ، وإياكم ، وإياكُنّ– وجب إضمار الناصب ، سواء وُجِد عطف أم لا ؛ فمثاله مع العطف :" إياك والشرَّ" فـ "إياك " : منصوب بفعل مضمر وجوبا ، والتقدير: إياك أُحذِرُ، ومثاله بدون العطف :إياك أن تفعل كذا ، أي : إياك من أن تفعل كذا ."[11]

وإن كان بغير "إياك " وأخواته ، فلا يجب إضمار الناصب ،إلا مع العطف ، أو التكرار ، فإن لم يكن عطف ولا تكرار جاز إضماروإظهاره نحو "الأسدَ" ؛ فإن شئت أظهرت الفعل ، وإن شئت أضمرت .

والأصل في أسلوب التحذير أن يشتمل على ثلاثة أمور مجتمعة:

أولها: المحذِّر: وهو المتكلم الذي يوجه التنبيه لغيره.

---

[5]كتاب العين/199

[6]مختار الصحاح/حذر

[7]لسان العرب/حذر

[8]القاموس المحيط/حذر

[9]المفردات/ حذر

[10]شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك 3/ 300 تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ط16 ، لبنان – بيروت 1393هـ

[11]السابق 300/3

ثانيها:المحذَّر: وهو الذي يتجه إليه التنبيه.

ثالثها: المحذور، أو المحذر منه، وهو الأمر المكروه والذي يصدر بسببه.

وللتحذير صور شتى منها:

1- صورة الأمر كقول الشاعر:

احذر مصاحبة اللئيم فإنها تُعدي كما يُعدى السليم الأجربُ

2- صورة النهي كقول الشاعر:

لا تلمني في هواها ليس يرضيني سواها

3- تكرار الاسم نحو

النار النار

4- صورة المبدوء بالضمير (إياك) وفروعه الخاصة نحو:

إياي- إياكم – إياكما[12].

الحديث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه[13] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ،فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ،فَإِنَّ اللَّهَ لايُحِبُّ الْفُحْشَ وَلاالتَّفَحُّشَ،وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فإنه دعا مَنْقَبْلَكُمْ فاستحلوا مَحَارِمَهُمْ وسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وقطعوا أرحامهم)[14]

بدأ الرسول بأسلوب التحذير (إياكم والظلم) ولفظ (إياكم) ضمير منفصل في محل نصب مفعول به لفعل محذوف وجوبا تقديره احذر؛ لتنبيه المخاطبين إلى أمر مذموم خطير، جاءت كل الشرائع الإلهية لتحذر منه وتستقبحه وتستنكره، ألا وهو الظلم، ولعل هذا الأسلوب أبلغ في هذا المقام لما يحمله من معان تحذير وتنبيه تجعل المتلقي يقف ويحذر من القيام به.

[12]شرح الألفية لابن مالك 300/3 وانظر : النحو الوافي/ 4-126

[13]هو ابن عامر بن كعب الدوسي، اختلف كثيرا في اسمه، فقيل: عمير، وقيل عبد شمس، وقيل غير ذلك، سماه الرسول صلى الله عليه وسلم عبدالرحمن، أكثر الصحابة حديثا، وكان أحفظ من روى الحديث في عصره، كان إسلامه بين الحديبية وخيبر، وقدم المدينة مهاجراً، وسكن الصفة استعمله عمر بن الخطاب على البحرين ثم عزله، ثم أراده على العمل فامتنع توفي سنة 57هـ، أسد الغابة/315

[14]رواه البخاري في الأدب المفرد/148

والظلم : هو وضع الشيء في غير موضعه، أصله: الجوز ومجاوزة الحد، والميل عن القصد، والظلمة: ظلم وظلمات، وأظلم الليل: أسود[15].

ويحذر نبي الرحمة من الظلم، لأن من مضاره أن يحمل صاحبه على أن يضعالشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضا، ويرضى في موضع الغضب، ويبخل في موضع البذل، ويأكل أموال الناس ، ويأخذها ظلما[16]

وقدصنف بعض الحكماء الظلم إلى ثلاثة أنواع:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال تعالى (إِنَّالشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[17]

الثاني: ظلم بينه وبين الناس وإياه قصد بقوله: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ)[18].

الثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وهو المقصود بقوله تعالى (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ)[19].

فالحديث من أدلة تحريم الظلم وهو يشمل جميع أنواعه سواء كان في نفس أو مال أو عرض في حق مؤمن أو كان كافر أو فاسق[20]، وهذا ما جاء به التعريف في كلمة (الظلم) الذي أفاد معنى الاستغراق ليشمل جميع أنواع الظلم.

ويعلل الرسول الكريمالسبب في التحذير من الظلم بقوله: (فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) فالتأكيد بحرف التوكيد (إن) واسمية الجملة يدلان على خطورة عواقب الظلم،وبيان خطره يوم القيامة.

فجزاء الظالم لا يكون في الدنيا فقط بل يمتد إلى يوم القيامة، فتحديد الزمان هنا (يوم القيامة) يجعل المرء يفيق من غفلته، والتعبير بيوم القيامة دون الآخرة مثلاً فيه من الرعب والهول الكثير، لأنه اليوم الذي يقف فيه جميع الخلق أمام الله تعالى فهو الحاسم

[15]ينظر لسان العرب والمفردات/ ظلم
[16]ينظر مدارج السالكين 295/2
[17]سورة لقمان /13
[18]سورة الشورى /13
[19]سورة فاطر/32
[20]سبل السلام/ 961

والفاصل لكل شيء، فالظالم الذي يظن أنه مخلد في هذه الدنيا وأن قوته ستدوم إلى رشده إذا علم أن الله تعالى يُمهل ولا يُهمل فيستيقظ من غفلته ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب، فمصيره غامض مشئوم، فالظلم يكون يوم القيامة ظلاماً دامساً يحل بصاحبه فلا يرى طريقه ولا يعرف كيف يمضي ولا أين يسير[21] فجزاء الظَالم (ظلمات) بصيغة الجمع ونكرة تفيد شدة العقاب، وشدة الظلام الحالك، فكأنها طبقات متتالية ومتعاقبة لا يرى النور منها، فالغرض التهويل والتعظيم من شأنها فهي ظلمات مغايرة لظلمة الليل المعروفة ليحذر الإنسان ويرتدع ويقلع عن الظلم بشتى طرقه.

ولعل الجمع يدل على تعدد أنواع الظلم وصوره في المجتمعات، فمنه أخذ مال اليتيم بغير وجه حق، والمماطلة في رد الحقوق إلى أصحابها، ومن الظلم استئجار الأجير لعمل ما ولا يعطى أجرته وغير ذلك كثير.

والإخبار عنه بأنه ظلمات يوم القيامة فيه أقوال:

- على الظاهر الحديث أي: يكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً في حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم.
- وقول المراد بالظلمات الشدائد والكربات كما في قوله تعالى: "قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ"[22]

فالظلم الذي وقع في الدنيا سيتحول إلى ظلمات وليس ظلما واحداً وهذه الظلمات ستتحول إلى شدائد وكربات قد تكون في الدنيا ويوم القيامة.

- وقيل: كناية عن النكال والعقوبات[23]

وتنكير (ظلمات) يفيد التشنيع والتقبيح لهذه الظلمات المتكاثرة.

ولعل الحديث يصور لنا صورة الظالم وهو محاط بظلمات متنوعة الطبقات متعددة لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى، فينتفض من غفلته ويسارع إلى النجاة منها، فيأتي

[21] ينظر من روائع الأدب النبوي/22
[22] سورة الأنعام/163
[23] سبل السلام/ 961

الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا التحذير كطوق نجاة لهذا الظالم لعله يعجل بالتوبة ويعود إلى الله تعالى.

وتكرار لفظ (الظلم) دون الإشارة إليه بالضمير المتصل كما في الأحاديث الأخرى للتأكيد على شناعة هذا الأمر، كما فيه دلالة على انتشاره بين الناس.

ومع أن الحديث في التحذير إلا أنه لم يخل من جناس بديع في قوله (الظلم–ظلمات) ولا يخفى ما يحقق الجناس من توافق صوتي يكون له وقعه في نفس السامع، وله تأثيره في التناسب والتناسق بين الجمل، فقد قاد إلى المعنى قال عبد القاهر:" أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا، ولم يكن مرمى الجمع بينهما بعيدا، فقد تبين لنا أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى ؛ إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن"[24].

كذلك وظف الحديث الشريف التشبيه مع الجناس في " الظلم ظلمات" حيث شبه الظلم وهو معنوي بالظلمات وهي حسي والصفة المشتركة بينهما التخبط وعدم الاهتداء إلى طريق الخير وحذف وجه الشبه ليجعل القارئ يذهب في تخيله كل مذهب[25]

وبعد أن وضح المصطفى صلى الله عليه وسلم عواقب الظلم تابع التحذير من الظلم إلى الفحش فقال صلى الله عليه وسلم: (وإياكم والفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ...) فتكرار (إياكم) لتحذير المخاطبين من أمته.

ولعظم المحذر منه، فهو الناصح المؤتمن على إصلاح أمته والأخذ بها إلى بر الأمان، فلا يحذر من شيء إلا لمصلحتها وتحقيق سعادتها ونجاتها من النار، ولذلك عطف على أسلوب التحذير الأول آخر مستخدماً حرف العطف (الواو) الذي يفيد مطلق المشاركة، ويدل على تناسب وتناسق بين المعطوف والمعطوف عليه.

والمحذر منه هو الفحش والتفحش ومعناه القبيح من القول، وجمعها الفواحش والمتفحش: الذي يتكلف سب الناس ويتعمده، والفحش كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي، وأراد بالفحش التعدي في القول والجواب، لا الفحش الذي هو من قذع الكلام ورديئة.

---

[24] **أسرار البلاغة/4**

[25] **البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية / 324**

والتفحش فيها تفاعل[26]، وكل ما جاوز حد الاعتدال مجاوزة شديدة فهو فاحش[27] ويعلل النبي صلى الله عليه وسلم لهذا التحذير بقوله: "فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش"، وتأكيد التعليل بحرف التوكيد (إن) لأهمية هذا التحذير، فالمسلم حريص على دينه.

واختيار لفظ الجلالة (الله) لأنه يدل على الاستعلاء، وعلى جميع الأسماء الحسنى وفيه دلالة الإلوهية مما زاد في أهمية التحذير، فغاية المسلم كسب رضا الله تعالى ومحبته.

ونفي الجملة الفعلية (لا يحب.) تأكيد على ثبوت عدم محبة الله تعالى لهذه الصفات، لذلك حذر الرسول صلى الله عليه وسلم منها.

وحذف الفعل مع (التفحش) فيه إيجاز بالحذف والإيجاز من بلاغته صلى الله عليه وسلم كما أن التعريف بأل العهدية في (الفحش والتفحش) للدلالة على أنهما معروفان عند الناس فلم يسأل أحد من الحاضرين عن معناه أو الفرق بينهما.

ومن بلاغة الحديث مجيء الجناس البديع (الفحش والتفحش) مما أضفى موسيقى عذبة، كما أن فيها تعظيماً للمعنى وتفخيماً فالفحش محذر ومنهي عنه، كذلك التفحش التي تدل على زيادة في عمل الفاحشة، فزيادة المبنى تقابل في زيادة المعنى.

ثم انتقل الحديث الشريف مباشرة إلى تحذير ثالث مستخدماً حرف العطف الواو الدال على مطلق التشريك فقال صلى الله عليه وسلم: "وإياكم والشح، فإنه دعا من كان قبلكم فاستحلوا محارمهم، وسفكوا دمائهم وقطعوا أرحامهم".

وتكرار أسلوب التحذير (إياكم) للمرة الثالثة لعظم المحذر منه وهو (الشح) ومعناه البخل، وقيل: البخل مع الحرص، والشح أشد من البخل وهو أبلغ في المنع من البخل، وقيل: البخل في أفراد الأمور وآحادها، والشح عام.

وقيل البخل بالمال، والشح بالمال والمعروف[28] والشح الحرص على منع الخير[29]

[26]لسان العرب/ شحح
[27]الفروق **اللغوية**/ 260
[28]لسان العرب/ شحح
[29]الفروق اللغوية/200

وقد وردت هذه اللفظة في القران الكريم في قوله تعالى: "وَمَنْ يُوقَشُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ"[30] وقوله تعالى: "وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ"[31]

وارتباط هذه الصفة الذميمة بالنفس الإنسانية دليل على شدة التصاقها بالنفس وصعوبة الخلاص منها إلا بعد مجاهدة عظيمة، وقد حرص الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام على صلاح أمته، فتحذيره من الشح خوفاً منه على سيطرته على الإنسان، لأن خطره عظيم يتعدى صاحبه ليصل إلى غيره من الناس.

فالشح إذا استلم زمام الأمور قاد النفس ودعاها إلى أمور تؤدي إلى الهلاك بين الناس وهذا ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم عندما قال: "فإن دعا من كان قبلكم..." فالفاء دلت على سرعة ما يترتب عليه الشح من فناء ودمار، فكأن الحديث الشريف يصور لنا الشح قائداً يقود ويدعو النفس فتقتاد له طائعة متذللة وذلك على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية.

والجملة الاسمية (فإنه دعا) تدل على ثبات هذه العواقب ونزول الهلاك مادام الشح هو القائد المسيطر على نفس الإنسان.

والتعبير بالفعل الماضي (كان) يثبت وقوع مثل هذا الأمر على أمم سابقة وقوله صلى الله عليه وسلم (من كان قبلكم) تزيد في توكيد المعنى، فكأن الرسول صلى الله عليه وسلم يضرب مثلاً أو يروي حكاية سابقة تؤكد سيطرة الشح على أمم سابقة مما أدى إلى هلاكها وفنائها، فهو يؤكد على أن الشح لا يأتي بالخير أبداً، وحكايته صلى الله عليه وسلم لصحابته – رضوان الله تعالى عليهم لأخذ العظة والعبرة.

وربط التحذير بـ (فاء السببية) للإقناع ببيان علته فالفاء جمعت بين السبب والنتيجة؛ لبيان نتيجة ما يترتب على الشح.

ثم يعرض الحديث لحقيقة الشح والآثار المترتبة عنه في قوله صلى الله عليه وسلم: "فاستحلوا محارمهم وسفكوا دمائهم، وقطعوا أرحامهم" فكأننا أمام قائد يأمر من حوله فيطاع مباشرة دون تعقل أو تفكير والذي صور لناسرعة تنفيذ الأوامر حرف العطف (الفاء) فهم

[30] الحشر/9
[31] النساء/128

جاهزون ومطيعون حتى أنهم ينفذون دون اعتراض ،وكأننا بهم و قد سُلِبت إرادتهم ، وسلموا له زمام أمورهم.

وفي الجمل الثلاث المتتالية بدأ التفصيل والتفسير زيادة في الإقناع والتعليل للتنفير والتحذير من هذه الصفة الذميمة التي سادت مجتمعنا، ولذلك انتقل الحبيب صلى الله عليه وسلم من أسلوب الخطاب (إياكم) إلى غير الخطاب في قوله: (فاستحلوا دمائهم.) لبيان العلة والنتائج المترتبة على الشح وأثره على السابقين مما أدى إلى هلاكهم، وهذا العقاب والهلاك دنيوي والحامل لهم هو شحهموبخلهم على حفظ المال وجمعه وازدياده وصيانته عن ذهابه في النفقات فضموا إليه مال غيرهم صيانة له، ولا يدرك هذا المال إلا بالجور والظلم والمعصية المؤدية إلى القتل واستحلال المحارم وقطع الأرحام وكل أواصر الأخوة والألفة[32].

ومن بلاغة الحديث حسن توظيف الحروف (حروف العطف) توظيفاً فنياً يؤدي دوراً ذا تأثير في نفس السامع، فعطف الجمل الثلاث على بعضها البعض بالواو أفادت السرعة دون المهلة، وكأنها حبات لؤلؤ تحتاج إلى صانع ماهر للوصول بينهما والرسول صلى الله عليه وسلم، هو صاحبها وقد تفوق في ذلك، فهو الذي أوتي جوامع الكلم، فالسرد بهذه السرعة المتلاحقة وهذه الطريقة يوحي بأن عند الحبيب صلى الله عليه وسلم الكثير.وفي الحديث إشارة وتلميح لبعض الأمراض التي قد تصيب النفس الإنسانية وتؤثر سلبا على المجتمع ،وقد سبق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أطباء النفس في الكشف عن هذه الأمراض النفسية وطريقة علاجها .

وفي الحديث أيضا بعض صفات الأمراض النفسية التي حذر منها المصطفى صلى الله عليه وسلم أمته ؛حتى تنشأ النفس المسلمة نفساً مطمئنة راضية سالمة من كل عوارض الانتكاسات المرضية التي تصيب النفس البشرية، فقد كان عليه الصلاة والسلام يتعاطى مع هذه الأمراض النفسية وقاية وتحليلاً وعلاجا[33]

ومما نلاحظه في الحديث تناسق العبارات وتساويها على نسق واحد، وطريقة معينة لتؤثر في السامع فيلقي سمعه وانتباهه لذلك،

[32]ينظر سبل السلام/961
[33]علم النفس النبوي/183

كذلك السجع في أواخر الجمل الثلاث يعطي راحة لأذن السامع وإيقاع موسيقى عذب، وهناك رابط قوي بين الأمراض الثلاثة المذكورة في الحديث الشريف.

فالظلم والفحش والشح في جميعها مجاوزة للحد، وأن أثرها لا يقتصر على الشخص فقط بل تتعداه إلى من حوله ثم إلى مجتمعه، فكأن هذه الأمور مترتبة على بعضها البعض، فالظالم يتفحش بالكلام ويشح بالخير وكذلك الفاحش، والشحيح، وهذا ما أكد عليه النبي الأمين من خلال استخدام التوكيد بـ (إن)المشددة والتي تكررت ثلاث مرات واسمية الجملة

ولعل هذا الحديث من قبيل عطف الخاص على العام، فالظلم عام والفحش والشح خاص، ووصلت الجمل الثلاث (إياكم والظلم) و (إياكم والفحش) و(إياكم والشح) للتوسط بين الكماليين ، حيث اتفقت إنشاء، فالوصل ربط الحديث برباط واحد لتتضح العلاقة بين المعاني الثلاث فالفصل والوصل مسلك دقيق أخبر عنه عبدالقاهر بقوله :" اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثوره، تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص، وإلا قوم طبعوا هلى البلاغة وأوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد. وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدا للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : " معرفة الفصل من الوصل" ذاك لغموضه ودقة مسلكه ، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد ، إلا كمل لسائر معاني البلاغة"[34]

وقد انتقى الرسول صلى الله عليه وسلم ألفاظه وأساليبه المناسبة كعادته صلى الله عليه وسلم فهو يبتعد عن غريب الألفاظ ووحشيها ومهجورها، ولذلك لم يحاجه أحد إلا غلبه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ولا ناقش أحداإلا غلبه[35] وهذا ما أراده المصطفى صلى الله عليه وسلم حين حذر من الظلم والفحش والشح وما يترتب عليهم من مضار.

[34]دلائل الإعجاز / 222

[35]دراسات لسانية في الحديث النبوي/27

الخاتمة

وختاما : فقد كشفت الدراسة في هذا الحديث الشريف عن أسرار الفصاحة ومقومات النص الأدبي الفنية، بل كان له من الخصائص والمقومات ما يميزه ويرفعه عن بقية النصوص، فهو رسالة يبلغها النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل بما يوحى إليه قال تعالى: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)[36] .

والسنة النبوية المطهرة جاءت مبينة ومفسرة وشارحة لكتاب الله تعالى، فهي مفصلة للعبادات والمعاملات وموضحة للأحكام الشرعية وغير الشرعية، وفيها توجيه وتربية للتعليم، والخطاب النبوي فيها يحمل الدعوة إلى الله تعالى، والتبشير، والتحذير، وإنارة النفوس لتحقيق سعادة الدارين.

وخلصت دراسة أسلوب التحذير في المعاملات في النص النبوي الشريف إلى ما يأتي:

- استخدم لفظ إياكم في بداية الحديث للتحذير بمعنى التحذير وللفت الانتباه، في حين جاء التحذير في مواضع أخرى في نهاية الحديث الشريف، ولعل ذلك التقديم بلفظ التحذير للأمور التي تكون أقل خطورة وأهمية وفيها إمكانية للرجوع والتوبة، أما التأخير يراد منه التشديد على خطورة الأمر الذي سبق أسلوب التحذير، نحو قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يسرق سارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يزني زان حين يزني وهو مؤمن... ولا يغل أحدكم حين يغل وهو مؤمن فإياكم إياكم"[37] بحيث يكون آخر ما يبقى في ذهن السامع الأثر الذي تركه لفظ التحذير في ختام الحديث.
- لجأ الرسول صلى الله عليه وسلم لأسلوب التحذير الجمعي، لأن المعاملات تقوم على معنى الجمع مع ورود أسلوب التحذير المفرد في مواضع أخرى، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "إياك والالتفات في الصلاة ...." فالخطاب في الحديث أو التحذير عالمي في مضمونه لأنه يتوجه به إلى الإنسان في كل زمان ومكان، ولعل مجيء الأسماء التي تقوم مقام المصدر بعد أسلوب التحذير توحي بامتداد البيان النبوي لكل زمان ومكان.

---

[36] سورة النجم 3-4

[37] رواه أحمد في مسنده/ 7855

• أسلوب التحذير ليس نهيًا لمجرد النهي وإنما اهتم بفكرة الإقناع العقلي والعاطفي مع التعليل، فعندما يحذر صلى الله عليه وسلم يأتي السبب والعلة من هذا التحذير حتى يقنع السامع بما يريده فيبتعد يحذر عن قناعة، وقد يأتي بأسلوب النهي المجرد دون استخدام أداة التحذير وهنا لا يلجأ للتعليل كقوله صلى الله عليه وسلم: "لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة...."[38]

• تميز أسلوب التحذير أنه جاء مؤكداً "بأن"غالباً، ولعل ذلك يتناسب ومعاني المعاملات التي تحتاج إلى اللجوء إلى التوكيد ،ذلك أن المخاطب غالباً يجهل ما يقع في المعاملات من أخطاء بخلاف العبادات التي لجأ فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أسلوب التحذير دون حاجة إلى توكيد.

• الإيجاز الشديد في التحذير في المعاملات وكما للإيجاز مواضعه الشريفة، فإن للإطناب مواضعه المستحسنة أيضاً، بحيث لو خرج البليغ عن تقديره لهذه المواضع كان كلامه غير بليغ، على أن السجية العربية الأولى أميل إلى الإيجاز...[39] ، فكلامه – عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم – كما قال عنه الجاحظ:" هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ...، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق"[40].

• جاءت ألفاظه صلى الله عليه وسلم واضحة سهلة لا ثقل فيها على اللسان، ولا تعثر بالنطق بل مأنوسة الاستعمال لا غرابة فيها عند كل من يسمعها في عصره وحتى قيام الساعة، وإذا ذكر لفظه غريبة وضح معناها لصحابته، فالحديث الشريف قطعة من البيان الرائعة التي تفتح مغاليق القلب دون تكلف.

• جمل الحديث الشريف جاءت متجاورة متآلفة متعانقة، تنساق في أداء المعنى والوفاء بالغرض المطلوب دون تنافر أو قلق، فالروابط بين الجمل محكمة لا تستطيع استبدالها بغيرها والإيقاع جميل ومؤثر والموسيقى عذبة تنساب منه، كذلك جاءت المحسنات البديعية

[38] رواه البخاري في صحيحه 27/7
[39] الأسلوب الصحيح في البلاغة والعروض/26
[40] البيان والتبين 16/2-17

رائعة وفي مكانها وقد راعى فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم مقتضى الحال وهذا يدل على تمكنه صلى الله عليه وسلم من اللغة الفصحى، ولم لا والأستاذ الرافعي يقول عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه كلام كلما زدته فكرا زادك معنى[41]

وقد تجمعت فيه خصائص البلاغة بالفطرة، وتهيأت له أسباب الفصاحة بالضرورة، فقد ولد في بني هاشم، ونشأ في قريش، واسترضع في بني سعد، وتزوج من بني أسد، وهاجر إلى قبلتي عمرو وهم الأوس والخزرج "وهذه القبائل التي تقلب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم هي بالإجماع أخلص القبائل لسانا وأفحصها بيانا وأعذبها لهجة."[42]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[41] وحي القلم 9/3

[42] السنة النبوية – تعريفها وحجتيها وبلاغتها د/ صالح رضا و د/ أحمد الحسيني ص 62 وتأملات في البيان النبوي د/إبراهيم عوضين 17-1

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري. تخريج: محمد عبد القادر عطا.
بيروت: دار الكتب العلمية. 1417-1996 م
- الأسلوب الصحيح في البلاغة والعروض:(جماعة من الأساتذة، دار مكتبة الحياة
بيروت. لبنان.دط).
- أسد الغابة في معرفة الصحابة : لعز الدين بين الأثير (دار الفكر، بيروت. لبنان.دط.)
- أسرار البلاغة: الإمام عبد القاهر الجرجاني ، علق حواشيه : السيد محمد رشيد رضا
(دار المعرفة ، بيروت ، دط)
- البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية: د. عزة محمد جدوع ، (مكتبة المتنبي ، الدمام ،
ط3 1438هـ -2017 م)
- البيان والتبيين : أبو عثمان بن عمرو الجاحظ ، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون
(دار الجيل ، بيروت)
- تأملات في البيان النبوي: د/إبراهيم عوضين. (ط2،1402هـ - 1981م)
- دراسات لسانية في الحديث النبوي: أحمد عارف حجازي عبد العليم.(دار فرحة
- المنيا-مصر.ط 1،2006م)
- دلائل الإعجاز : الإمام عبد القاهر الجرحاني ، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد
شاكر ،(مطبعة المدني بالقاهرة ، ط 3 ، 1413هـ- 1992 م)
- سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام : محمد بن إسماعيل الصنعاني عناية:
حسان عبد المنان (بيت الأفكار الدولية، عمان. الأردن. دط)
- السنة النبوية تعريفها وحجيتها وبلاغتها: د/ صالح رضا، د/أحمد الحسيني(دارة الصحوة.
ط1، 1409هـ -1998م).
- 1شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،(دار
الفكر ، لبنان – بيروت ط16 1393هـ)

- صحيح البخاري : للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري،(دار الفكر، 1401هـ -1381هـ)
- علم النفس النبوي : قاسم شهاب صباح.(مؤسسة الرسالة. بيروت ط1 – 1415هـ – 1995م).
- الفروق اللغوية : أبو الهلال الحسن بن عبدالله العسكري ، علق عليه ووضع حواشيه: محمد باسل عيون السود (دار الكتب العلمية، بيروت. ط2 ،1424هـ -2003م).
- القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي.(دار الجيل، بيروت، لبنان. دط).
- كتاب العين: أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي. تح: د/مهدي المرحومي، د/ إبراهيم السامرائي.(مؤسسة الأعلى، بيروت – لبنان، ط1، 1408هـ 1988م)
- لسان العرب: للعلامة أبي الفضل جمال الدين بن محمد بن منظور(دار الفكر للطباعة والتوزيع. ط3، 1414هـ -1994م).
- مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر الرازي. (دار القلم. بيروت. لبنان. دط
- مدارج السالكين : لشمس الدين محمد بن أبي بكر (ابن القيم الجوزية) تح: محمد المعتصم بالله البغدادي،(دار الكتاب العربي – بيروت – 1421هـ -2001م.)
- مسند الإمام أحمد بن حبل : مطبعة مضبوطة،(بيت الأفكار الدولية الرياض – 1419هـ-1990م)
- مفردات ألفاظ القران : الراغب الأصفهاني تح: صفوان عدنان، (دار القلم، دمشق، ط2. 1418هـ -1997م)
- المستدرك على الصحيحين : لأبي عبد الله محمد بن الحاكم النيسابوري. تح: مصطفى عبد القادر عطا.(دار الكتب العلمية، بيروت. ط1. 1411هـ)
- النحو الوافي : عباس حسن.(دار المعارف، مصر. ط5)
- وحي القلم : مصطفي صادق الرافعي،(دارالكتاب العربي، بيروت لبنان،دط)